

مقدمة

صديقنا « الدكتور محمود أحمد الحفنى » موسيقى بفطرته ، فلقد رأيناه ، وهو يدرس الطب ، قبل أن يدرس الموسيقى ، فى مطلع الحركة القومية المصرية ، يؤلف الأناشيد الوطنية ويلحنها تلحيناً حماسياً ملتهباً ثم ينطلق بها فى المجتمعات يتغنى بها الطلبة وجماهير الشعب المتحمسين .

والعلاقة بين الموسيقى والطبيعة علاقة باطنة أكثر منها ظاهرة ، وهذا الشعور العميق فى حنايا الضلوع قديم ، متغلغل واسع التغلغل فى النفوس عبّر عنه « كونفوشيوس » فى كلمات قليلة المبني بليغة المعنى حين قال : أيتها الموسيقى ! يا لسان الطبيعة المقدس ! أسمعك تنادىنى فأبى وأهرع إليك » .

كذلك كانت الموسيقى فى نفس « الحفنى » بالغة الأثر فغلبته وغيرت مجرى حياته ، فلبى وهجر دراسة الطب ، واندمج فى معاهد الموسيقى يدرس علومها وفنونها وآدابها وفلسفتها حتى بلغ غايتها ونال أعلى إجازاتها .

فإذا رأيناه ، بعد ذلك ، يتفرغ لتصنيف الكتب فى علوم الموسيقى وفنونها المختلفة ، ويُعنى عناية كبرى بدراسة الشخصيات الموسيقية الممتازة ، والعباقرة اللامعين فى سماء الموسيقى ، فإنما ليجزيهم

من النوفاء ما يستحقون أو بعض ما يستحقون . فهو قد درس حياة « موتسارت » وصنف في تلك « المعجزة » كتاباً ألم فيه بنشأته وحياته وإنتاجه الفنى وعمق برئته الخالدة بما لا مزيد بعده لباحث ، ولا غنى عنه لدارس .

وهو اليوم يطالع القراء بدراسة أخرى لبيتهوفن ... ذلك الموسيقار الذى أثرت حياته فى تطورات الموسيقى ، بل وفى المجتمع ، ذلك بأنه كان أسرع الناس إحساساً بنزعات المجتمعات ، فلم ينفق عاطفته الموهوبة فى ناحية واحدة من مراميها وأغراضها ، بل شمل مناحى حياتها جميعاً .

من الحق أن نقول : إن بيتهوفن كان مؤلفاً موسيقياً مثالياً (Classic) وألكه أيضاً كان مؤلفاً عاطفياً (Romantic) وكان فى كلتا الحالتين مبدعاً مبتكراً . والموسيقى العاطفية لغة تحسبها المشاعر ، ولا يستطيع غير قليل من أهل النبوغ أن يعبر بها تعبيراً مبيناً أبلغ من نطق اللسان وأسلوب الحديث .

ومن الواضح أبين الواضح أن « بيتهوفن » يتزعم هذا القليل من النبغاء ، بل كأنى به والدم . فأعماله الباهرة فى هذه السبيل تراث فى قيم توارثه الأعتاب وحرصت عليه الأحقاب ، وحقق للناس أوفى نصيب من صور الحياة . وحسبنا مثالا رباعياته والسوناتات والسهفونيات الخالدة ، فكلاهما متألفة فى سماء الفن ، مرتقية إلى كمال لا يدرك شأوه . وإنك لتجتلى فى هذا التراث أثار ارتقاء الموسيقى العاطفية ونتائجها المثمرة .

نشأت الموسيقى العاطفية في ألمانيا لتحسين ومائة عام خلت ،
وما زالت بها إلى اليوم قوية الأثر . ومن بين رجالها على سبيل المثال :
١ - ريجر (١٨٧٣ - ١٩١٦) وكان مؤلفاً موسيقياً بارعاً
لحوادث التاريخ المشهورة .

٢ - مالر (١٨٦٠ - ١٩١١) وقد ملأ ذكره أرجاء الدنيا
ككؤلف موسيقى ورئيس فرقة نعبت « السنفونى » من ألف عازف .
٣ - فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) الذى نجح فى محاولاته المضنية
للتوفيق بين الموسيقى والدراما ومناظرها المسرحية .

وإذن فلا ريب أن « بيتهوفن » كان فجر هذه الموسيقى .
لقد كانت موسيقى « بيتهوفن » وليدة طبيعته فكانت لذلك
جزءاً كاملاً من حياته ، حتى لا تخطى ، إذا قلت : « موسيقى بيتهوفن
هى بيتهوفن » . لذلك كان معتزاً بها ، ناقماً على من لا ينزلها منزلتها
العليا من النبيل والشرف

وما أحب أن أدخل فى تفصيل حياته وذكر مناحى عبقريته ،
ولا أن أتعرض لبوغه المعجز حين أدركه الصمم ، فكل هذا عرض
له صديقنا « الدكتور الحفنى » فى دراسة تحليلية وإسهاب ، وأسلوب
قصصى يأخذ بالألباب ، وهو الأسلوب الحديث فى البحث والتحليل
وإنما الذى أحب أن أقرره صادقاً هو أن هذا الكتاب سيكون موضع
دهشة وإعجاب لأولئك الذين لم يعرفوا « بيتهوفن » إلا سماعاً ، ذلك
بأن عبقريته شغلت الدنيا بأسرها .

عز العرب على